القرآن العظيم في مشهود بديع الزمان سعيد النورسي

د. فريد الأنصاري كلية الآداب/مكناس

قصة بديع الزمان مع القرآن:

عجبا! كيف يصر الإنسان على التيه في الظلمات، ولا يستمد الشعاع من النور؟

والنور قريب! قال تبارك اسمه: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض)(النور:35)، وقال جل وعلا: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)(البقرة:186). عجبا! وهذا القرآن العظيم يمد المؤمنين بنور لا يخبو أبدا! (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا. مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ. وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا. وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ.)(الشورى:52-53).

فأين الإنسان؟

تَجَلّي النُّورِ فَوْقَ الطُّورِ بَاقٍ ** فَهَلْ بَقِيَ الكَليمُ بِطُورِ سِينا؟([1])

ولقد تجلى إعجاز القرآن لكل زمان، بصورة مناسبة لإنسان ذلك الزمان. وذلك ضرب آخر من ضروب الإعجاز! حتى جاء عصر ظلمات الفتن، التي أنذر رسول اللهε باندلاعها على أمته! فتجلى إعجاز القرآن – مرة أخرى – نورا أبصره الربانيون! فكشفوه للناس، كلٌّ حسب منزلته من موقع التلقي.

ولما كان أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، كانت الأمة الإسلامية بأكملها تقريبا؛ ترزح تحت كابوس الاستعمار! وكانت ظلمات! ثم كان النصف الأول من القرن العشرين مرحلةً لانتشار الأيديولوجيات والفلسفات المنكرة للدين والمشككة في حقائقه! فكانت ظلمات أخرى! وهنالك احتاج المسلمون إلى تجديد الصلة بالنور. ولكن للأسف كانوا لا يبصرون! على حد قول الله تعالى: (وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ)(الأعراف:198)، وقوله سبحانه: (وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)(يوسف:105). فاحتاجوا بذلك إلى (مُبَصِّرين)، وليس إلى (مُبْصِرين) فقط! فليس صدفة إذن؛ أن انطلق بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، في هذه الفترة بالذات: (1876م/1294هـ) إلى (1960م/1379هـ) يكشف

[1] البيت للشاعر الباكستاني محمد إقبال، رحمه الله.

إعجاز القرآن نورا، (يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)(المائدة:16).

فعندما داهمت ظلمات العلمانية العالم الإسلامي، اختلف العلماء والمصلحون حول أشكال مناهضتها، من القتال الجهادي إلى السجال الفكري! واختار بديع الزمان حمل راية (إعجاز القرآن)، والعمل تحت رايتها فقط! بيد أن (إعجاز القرآن) كما حمله النورسي رحمه الله لم يكن مجرد درس بلاغي عتيق! بل كان منهجية جديدة لتبصير المسلمين حقائق القرآن في النفس وفي المجتمع، وبعث روح القرآن فيهم! فكيف بقوم انبعثت فيهم روح القرآن؟ ذلك هو الإعجاز! لقد كان الأستاذ رحمه الله ملقنا لبصائر القرآن بامتياز! وهنالك يكمن سر نجاحه التجديدي للدين. ذلك النجاح الذي لم يمت بموته، كلا! بل استمر نوره متدفقا على العالم، شاقا طريقا من نور غريب نحو المستقبل. فإنما كان يقرأ القرآن ويفسره بمنهج استبصاري نادر! ومن هنا فإنك – وأنت تقرأ كلماته رحمه الله – تجده يخاطب من حين لآخر أجيالنا والأجيال التي بعدنا بوعي تام! وذلك من مثل قوله في نداء استبصاري عجيب: (يا إخوتي! ويا زملائي الذين يسمعون هذا الكلام بعد خمسين عاماً!)([2])

إنك لما تقرأ كليات رسائل النور؛ تشعر كأنما هذه الرسائل قد كتبت لزماننا هذا، أو كأنما كتبت للتو على إثر أحداث وقعت في المسلمين الآن، ولما نخرج من لهيبها بعد! ولا تكاد تسأل في حيرة الفجيعة: كيف الخروج؟ حتى تجد رسائل النور تسبق إليك بالجواب! تنتشلك من ظلمات الحيرة والاضطراب، وتوقظ وجدانك: أن افتح عين قلبك! وأذن روحك! وشهود بصيرتك! لتتلقى نور القرآن بنفسك، لا بواسطة غيرك؛ فتكون من المبصرين!

يقول رحمه الله في سياق تلقينه بصائر القرآن: (أتكلم في مكاني، لا في مقام السامع المواجه لي – خلافاً لسائر المتكلمين، الذين يفرضون أنفسهم في مقام السامعين – فيصير أمام كتابي [الذي] وجههُ إليّ، ومعكوسه ومقلوبه إلى السامع، فكأنه يقرأ في المرآة فيتعسّر عليه؛ فإذاً لا أذهب إلى مقامه، فليرسل هو خياله إليّ لأضيفه على عيني ، في رأسي؛ كي يرى كما أرى!)([3])

---

[2] صيقل الإسلام: 518.

[3] المثنوي العربي النوري: 218.

إن بديع الزمان حينما اختار طريق البيان لإعجاز القرآن؛ إنما اختار طريق العروج بالمسلمين إلى المقامات العلى، من الوعي بالوجود الديني، والتميز الحضاري. لقد اختار أن ينخرط في البناء الشامل لصرح (الأمة)! وليس فقط لبعض جزئياتها، أو لدفع بعض أزماتها العابرة، أو المتوهمة. ولطالما أُشغل المصلحون بأزمات وهمية؛ إلهاء لهم عن صلب القضية الكبرى: بناء جيل القرآن! وذلك ما لم يكن ليكون إلا ببيان (إعجاز القرآن)، بالمفهوم الذي عرضناه عند بديع الزمان النورسي رحمه الله، فلله دره! أي رجل كان!؟

لقد جاء على موعد مع التاريخ؛ ليكون به ما أرد الله لهذه الأمة، من إنقاذ الإيمان في الحاضر، وبناء الأمة للمستقبل! وقطعا لم يكن خروجه ببلاد الخلافة الإسلامية عبثا، أو صدفة، بل كان بعثة تجديد، وقَدَراً مقدورا! ما يزال يمتد في أفق هذه الأمة، ومستقبلها بتجليات شتى! اقرأ هذه القصة التي يحكيها عن نفسه رحمه الله في بيان نقطة البدء، تحت عنوان: (رؤيا صادقة حول إعجاز القرآن:

قبل اندلا ع الحرب العالمية الأولى، وقبل إبّان نشوبها رأيت في رؤيا صادقة الآتي:

رأيت نفسي تحت جبل (آرارات).. وإذا بالجبل ينفلق انفلاقاً هائلاً، فيقذف صخوراً عظيمة كالجبال إلى أنحاء الأرض كافة! وبينما أنا في هذه الرهبة التي غشيتني رأيت والدتي – رحمة الله عليها – بقربي. قلت لها: لا تخافي يا أماه! إنه أمر الله، إنه رحيم، إنه حكيم. وإذْ أنا بتلك الحالة؛ إذا بشخص عظيم يأمرني قائلاً:

– بيّن إعجاز القرآن!

أفقتُ من نومي، وأدركتُ أنه سيحدث انفلاق عظيم! وستتهدم الأسوار التي تحيط بالقرآن الكريم؛ من جراء ذلك الانفلاق والانقلاب العظيم! وسيتولى القرآن بنفسه الدفاع عن نفسه! حيث سيكون هدفاً للهجوم، وسيكون إعجازه هو حصنه الفولاذي، وسيكون شخص مثلي مرشحاً للقيام ببيان نوعٍ من هذا الإعجاز في هذا الزمان – بما يفوق حدّي وطوقي كثيراً – وأدركتُ أني مرشح للقيام بهذا العمل!)([4])

فلم يلبث أن وجد الرجل نفسه - بعد ذلك - يشق حياته بحثا عن حقائق القرآن .ووجد نفسه يسلك مسالك، كأنما يُدْفَعُ إليها دفعا، من غير تفكير منه سابق، ولا إرادة !فلم يدر كيف

---

[4] المكتوبات: 475، وسيرة ذاتية:120.

توارى (سعيد القديم) ليخرج من جبته (سعيد الجديد)([5]): الرجل القرآني، الذي كشف إعجاز القرآن؛ فحاصر العلمانية الرسمية بين أبراجها .ثم انخرط في تجديد بناء الأمة من القواعد !قال رحمه الله : (إن أكثر أحداث حياتي، قد جرت خارجة عن طوق اقتداري، وشعوري، وتدبيري؛ إذ أُعْطِيَ لها سيرٌ معينٌ، ووُجِّهت وجهةً غريبةً؛ لتنتج هذه الأنواع من الرسائل التي تخدم القرآن الحكيم. بل كأن حياتي العلمية جميعها بمثابة مقدمات تمهيدية؛ لبيان إعجاز القرآن!)([6]) فكان بديع الزمان سعيد النورسي في صورة (سعيد الجديد)! وكانت (كليات رسائل النور)!([7])

فلم تكن عبقرية بديع الزمان النورسي – رحمه الله – غير رشحة من رشحات القرآن العظيم، وومضة من ومضاته المتدفقة أبدا على العالمين! فالقرآن نور رباني عظيم (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا)(النساء:174). فلم يزل – منذ نزوله على محمدﷺ– متدفقا على البشرية من الأعالي!

ذلك هو القرآن، النور الإلهي المبين! وإنما تتلقاه القلوب الصقيلة الصافية. فهي وحدها تعكس من أشعته على قدر صفائها، فإذا بها تتلألأ في الآفاق مثل النجوم! واقرأ إن شئت قول الله جل علاه: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(النور:35)

من هنا إذن؛ من منابع النور.. انقدحت مواجيد بديع الزمان النورسي؛ فكانت (كليات رسائل النور)! لقد انجلى لبصيرته النافذة أن التحدي الرهيب للدين، ولحقائق الإيمان في هذا العصر العصيب؛ لن يقف في وجهه غير سيف القرآن البتار! فنبذ كل الأسلحة إلا

---

[5] ميز سعيد النورسي في رسائله بين شخصيتين من ذاته: الأولى شخصية (سعيد القديم) وهو الرجل الذي اختار الانخراط في الصراع السياسي، وذلك كان هو سعيد النورسي قبل الأربعين من عمره. أما (سعيد الجديد) فهو الرجل القرآني الذي تفرغ لبناء المنهج القرآني في المجتمع، مرددا عبارته المشهورة: (أعوذ بالله من الشيطان ومن السياسة!)

[6] سيرة ذاتية:10.

[7] (كليات رسائل النور): هو الذي الاسم الذي أطلقه النورسي على مجموع رسائله في الدعوة والإرشاد. وهي تزيد على مائة وثلاثين رسالة.

سلاح القرآن العظيم. وانبرى لإعلان إعجاز القرآن بلغة جديدة ومنهج جديد، منهج مستوحى من القرآن نفسه، فكان له – لذلك – من النجاح ما شهدت به الأيام بعدُ؛ بأعلى صوت الزمان وملء فمه! واستطاع بحركته القرآنية أن يشق ظلمات العلمانية الملحدة، بشعاع القرآن وحده، وأن يبني جيلا من طراز فريد، يتحدى به كل أنواع الفتن، فأنبت حقائق الإيمان ريانة خضرة، على أرض أحرقتها الزندقة الجديدة وألهبت كل نبتة للخير فيها! لكن كشف حقائق الإيمان برسائل النور، وإظهار إعجاز القرآن للعالمين في هذا العصر كانت له جولة جديدة من جولات المعجزة المحمدية الخالدة، تلك المعجزة التي نطق بها القرآن العظيم، وجعلها حقيقة كونية سرمدية قاهرة: (يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)(التوبة:32-33).

ذلك سر من أسرار القرآن! فلنطل إذن مع بديع الزمان على بعض ذلك من خلال ما عرضه من مشاهدات عن القرآن!

– مفهوم (القرآن) في التعريفات اللغوية:

تكاد تجمع معاجم اللغة على أن الأصل الدلالي لمادتي: (قرأ) و(قري) إنما هو معنى الجمع والاجتماع، وما تفرع عنه. سواء همزت آخره أم لم تهمزه، فهو في ذلك سواء. ومنه سمي (القرآن) قرآنا؛ لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص والعبر، أو لاجتماع آيه وسوره وتألفها. قال ابن فارس: (القاف والراء والحرف المعتل: أصل صحيح يدل على جمع واجتماع. من ذلك القرية؛ سميت قرية لاجتماع الناس فيها. ويقولون: قَرَيْتُ الماءَ في المقراة: جمعته (...) وإذا هُمِز هذا الباب كان هو والأول سواء (...) قالوا: ومنه القرآن، كأنه سمي بذلك لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص وغير ذلك.)([8])

وقال صاحب مختار الصحاح: (قرأ الكتابَ قراءة وقُرآنا بالضم. وقرأ الشيء قُرآنا بالضم أيضا: جمعه وضمه. ومنه سمي (القرآنُ)؛ لأنه يجمع السور ويضمها)([9]).

---

[8] المقاييس، مادة: (قري).

[9] مختار الصحاح، مادة: (قرأ).

وذلك ما نجده لدى ابن منظور، رغم ما أورده من كثرة الاستعمالات للمادة اللغوية، ودلالاتها. قال رحمه الله: (قَرَأَهُ يَقْرَؤُه ويَقْرُؤُه (...) قَرْءاً وقِراءَةً وقُرْآنا (...) يسمى كلام الله تعالى الذي أنزل على نبيهε كتابا وقرآنا وفرقانا. ومعنى القرآن: معنى الجمع. وسمي قرآنا لأنه يجمع السور فيضمها. وقوله تعالى: "إن علينا جمعه وقرآنه"(القيامة:17) أي جمعه وقراءته. "فإذا قرأناه فاتبع قرآنه"(القيامة:18) أي قراءته. (...) وقال بعضهم: قرأتُ: تفقهتُ. ويقال: أَقْرَتُ في الشعر، وهذا الشعر على قَرْء هذا الشعر: أي على طريقته ومثاله. (...) والقَرْءُ: الوقت. قال الشاعر:

إذا ما السماء لم تَغِمْ ثم أخْلَفَتْ *** قُروءَ الثُّرياَّ أنْ يكون لها قَطْرُ

يريد وقت نوئها الذي يمطر فيه الناس.

(...) والقَرْء والقُرْء: الحيض، والطهر ضد. وذلك أن القرء الوقت، فقد يكون للحيض والطهر.)([10])

وربما كان الأصل – من حيث الوضع اللغوي – لمادة (قرأ) دالا على الجمع، فكانت (القراءة) – بمعنى: تلاوة الحروف – من فروعه، من حيث إن القارئ يجمع الحروف ويضم بعضها إلى بعض عند التلاوة؛ إلا أن الإشكال هنا هو: هل اسم (القرآن) من الجمع بمعنى الوضع الأول، أم بمعنى القراءة والتلاوة التي هي فرع استعمالي؟

فرغم أن أغلب كتب اللغة –كما رأيت – مالت إلى ترجيح الأول فإن أبا جعفر الطبري (المتوفى سنة:310هـ) مال في تفسيره – وهو من الأصول اللغوية أيضا – إلى ترجيح الثاني. أي أن (القرآن) – عنده – إنما سمي كذلك؛ لأنه يقرأ بمعنى: يتلى، وليس بمعنى يُجمع. قال رحمه الله: (فأما القرآن: فإن المفسرين اختلفوا في تأويله. والواجب أن يكون تأويله على قول ابن عباس، من التلاوة والقراءة. وأن يكون مصدرا، من قول القائل: قرأت القرآن، كقولك الخسران من خسرت، والغفران من غفر الله لك. (...) وأما على قول قتادة، فإن الواجب أن يكون مصدرا، من قول القائل: قرأت الشيء إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض. كقولك ما قرأت هذه الناقة سلاً قط: تريد بذلك أنها لم تضم رحما على ولد (...).

---

10 اللسان: (قرأ).

ولكلا القولين، أعني قول ابن عباس وقول قتادة اللذين حكيناهما وجه صحيح في كلام العرب. غير أن أولى قوليهما بتأويل قول الله تعالى: {إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه}(القيامة:17-18) قول ابن عباس؛ لأن الله جل ثناؤه أمر نبيه في غير آية من تنزيله باتباع ما أوحي إليه، ولم يرخص له في ترك اتباع شيء من أمره إلى وقت تأليفه القرآن!)([11])

والراجح – والله تعالى أعلم – أن يكون المعنيان معا مقصودين في دلالته اللغوية؛ وذلك بغض النظر عن خصوص دلالة آية سورة القيامة، مما أورده أبو جعفر رحمه الله، فلا يمنع ورود المعنى الجزئي أن يكون الكلي – وهو أشمل منه طبعا – مقصودا أيضا. فيكون (القرآن) قد سمي بذلك؛ لجمعه المعاني كلها. وهو معنى وجيه جدا. قال عز وجل: (ما فرطنا في الكتاب من شيء)(الأنعام:38) ولأنه مؤلف مجموع متناسق، ثم لأنه إنما أنزل ليقرأ ويتلى. وكل ذلك حسن جدا في معنى (القرآن) لغة. فلا تزاحم بين هذه المعاني جميعها، ولا تعارض.

وهذا ما يفهم أيضا مما أورده الراغب الأصفهاني(ت:502 هـ) – من قبل – في كتابه القيم (المفردات في غريب القرآن). قال رحمه الله: (القراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل (...) قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله: لكونه جامعا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم! كما أشار إليه بقوله: {وتفصيلَ كل شيء}(يوسف:111) وقوله: {تبيانا لكل شيء}(النحل:89)([12])

ولعل هذا المسلك التوفيقي بين الدلالتين اللغويتين، هو الأقرب إلى تفسير بديع الزمان النورسي لمفهوم القرآن الكريم، من حيث هو اصطلاح، كما سترى بحول الله.

مصطلح (القرآن) بمشهود بديع الزمان النورسي:

هذا، وأما تعريف (القرآن) عند النورسي من حيث هو مصطلح، وُضِع للدلالة العَلَمية على (كلام الله رب العالمين، المنزل على رسوله محمد بن عبد اللهε، المتعبد بتلاوته،

---

[11] جامع البيان:1/42.43.

[12] المفردات: (قرأ).

المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر) على حد تعبير علماء القرآن؛ فقد كانت له فيه صياغة لطيفة خاصة. إلا أنها كانت من مخاض المعاناة الوجدانية، والتجربة التفكرية.

فالنورسي رحمه الله ملم طبعا بتعريفات المفسرين وعلماء القرآن، لكنه لم يكن يقصد في بيان (مفهوم القرآن)؛ إلى صياغة تعريف رسمي أو حدي – على طريقة المناطقة – غايته حصر العقول في معنى (القرآن) من حيث هو (مصحف مكتوب)، بما لا يدع مجالا للخلط بينه وبين غيره، أو تحريفه بالزيادة والنقصان، فتلك غاية تكفل الله بها سبحانه، إذ قال عز وجل: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(الحجر:9). وعلماء القرآن والمفسرون ثم حفاظ الأمة من ورائهم، هم الذين سخرهم الله جل جلاله؛ لتنفيذ هذه المهمة العظيمة. إلا أن بديع الزمان ما كان يسعى إلى هذا، بقدر ما كان يسعى إلى محاولة تعريف (القرآن) من حيث هو (كلام رب العالمين) المتوجه برسالته إلى الإنسان حامل الأمانة! فكأنه رحمه الله كان يروم تعريف (القرآن) من حيث هو مضمون، ومقاصد، لا أحرف ورسوم. بمعنى أنه كان يحاول تعريف القرآن من حيث هو رسالة ربانية، تحدد غاية الوجود البشري في الكون، وتلخص قصة التكوين، وترسم للإنسان مدار فلكه الذي ينبغي له أن يسلكه إلى ربه.

وهنا مكمن الصعوبة، أو قل المغامرة؛ وذلك راجع إلى الطبيعة (المطلقة) لهذا المصطلح من جهة، فهو كلام الله جل جلاله؛ وإلى كون الأستاذ إنما حاول تعريف (القرآن) عبر (المشاهدة) و(التفكر الوجداني). وهو مما يصعب – إن لم يستحل – نقل معانيه عن طريق اللغة الواصفة!

لقد تحاشى بديع الزمان – في تعريفه للقرآن – التعريف المنطقي التقليدي للمصطلحات والمفاهيم، من (حدود) و(رسوم)، وجاء بتعريف (ذوقي)، لا يطمع إلى الإحاطة بالمفهوم، إذ كلمات الله لا يحيط بها أحد، وإنما حاول خلاله (تذويق) المتذوقين: (ما القرآن؟). و(الذوق) لا يقع في العادة إلا على جزء. لكنه إذا كان ذوقا صحيحا أنبأك عن طبيعة الباقي على الجملة، وصور لك مخايل المعنى الكلي غيبا، وغمرك شوقا إلى تذوق الباقي. ومن هنا سمى النورسي ما صاغه من تعريف لمصطلح القرآن: (لمعة من تعريف القرآن)([13]).

---

[13] إشارات الإعجاز:22/5

وبالرغم من أنه سماه (لمعة)؛ إلا أنه لم يرد في جملة واحدة، أو جمل قصيرة على غرار التعريفات المنطقية القائمة على تحديد الفصول والخصائص. بل جاء في فقرات من البيانات الإشارية، والعبارات الذوقية؛ لأن النورسي رحمه الله كان يعلم، بل كان يشعر و(يجد) أنه بإزاء الحديث عن (كلام الله)! وكفى بذلك عظمة أن لا يحدث عنه الإنسان إلا رمزا! وأي عبارة في اللغة بإمكانها أن تحيط بحرارة الشوق، وأنوار المشاهدة، التي تتدفق على قلب المشاهد لجمال القرآن وجلاله؟ والنورسي شاعر بذلك، ومعتبر له في تعريفه. قال رحمه الله: (إن الكلام الإلهي سبحانه لا نهاية له، وذلك بسر الآية الكريمة: "قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي" الآية (الكهف:109))([14]).

ونحن هنا بحول الله نورد تعريفه أولا، ثم ندرسه؛ لبيان المقاصد التذويقية التربوية التي تضمنها، والفضاءات الوجدانية التي سبح فيها، وآثار ذلك كله على المتلقي مما هدف إليه النورسي وقصده في هذا التعريف.

قال رحمه الله: (فإن قلت: القرآن ما هو؟ قيل لك:

"هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم.. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض. وكذا هو مفتاح الحقائق والشؤون المضمرة في سطور الحادثات. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية، والالتفاتات الأبدية الرحمانية. وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي. وكذا هو قول شارح، وتفسير واضح، وبرهان قاطع، وترجمان ساطع؛ لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه.

وكذا هو مرب للعالم الإنساني. وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد الهادي إلى ما خلق البشر له. وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر.

---

[14] الشعاعات:189/4.

وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة، في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية. كذلك هو كمنزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل؛ حتى إنه أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة، من الأولياء والصديقين، ومن العرفاء والمحققين؛ رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره، حتى كأنه مجموعة رسائل".)([15])

وإنما غاية مقالنا هذا أن نقتبس من هذا التعريف الهام للقرآن الكريم قضايا نفصلها كما يلي:

القرآن كلام الله:

إن ما بهر النورسي من ذلك، وأفاض مشاعره؛ هو أن القضية الأولى هنا هي من العظمة والرهبة؛ بحيث يستحيل على القلب البشري تحمل مواجيدها! بدءا بالتفكر في هذا الكون الشاسع، الممتد في فضاءات لا يحدها بصر ولا تصور ولا خيال! وما يسبح فيه من نجوم وكواكب ومجرات وسدم غائرة بعيدة بملايين السنوات الضوئية، وما يحيطها من سماوات بعضها فوق بعض، وما يعمرها من خلائق نورانية، مما لا يدرك له كنه، ولا صورة، إلى ما بين هذا وذاك، من طبقات الزمان المختلفة؛ عدا، وتقديرا، ونسبة، من الأيام والسنوات، قد يختزل اليوم الواحد منها (ألفَ سنةٍ مما تَعُدّون)(السجدة:5) إلى (خمسينَ ألفَ سنة)(المعارج:4)! ورب هذه العوالم جميعها، الخالق لها، والمحيط بأزمنتها وأمكنتها كلها، المدبر شؤون حياتها ومماتها وأرزاقها، بقيوميته الممتدة من الأزل إلى الأبد، المالك زمام أحوالها بأنوار أسمائه الحسنى وصفاته العلى، سبحانه وتعالى! هذا الرب الرحمن الرحيم، والملك العظيم، المتنزه في مطلق علوه، وسموه، وجلاله، وكبريائه؛ يقَدّر برحمانيته ورحمته أن يكرم الإنسان، هذا المخلوق الضعيف الضئيل، القابع في الأرض؛ هذا الكوكب الضئيل السابح في بحر عظيم زاخر بأمواج السدم والمجرات، فيكون من أعظم مقامات هذا التكريم؛ أن يخاطبه بهذا الكلام الإلهي العظيم: القرآن الكريم!

---

[15] إشارت الإعجاز:22/5 والمكتوبات:267/2

فكيف للنسبي الفاني أن تتحمل مواجيده كلام المطلق الباقي؟ كيف للقلب المحكوم بالزمان والمكان، أن تستوعب خفقاته المعدودة، وأنفاسه المحدودة؛ وقع الكلام الخارق للزمان والمكان؟

تلك هي القضية المزلزلة للكيان الإنساني، في قلب الأستاذ الذواقة، بديع الزمان سعيد النورسي، والمفجرة لكل طاقاته الوجدانية، التي سطرها ألحانا وأنغاما في رسائل النور. فمن ذا قدير إذن؛ على وضع حد معرف، أو رسم شارح لـ(مفهوم القرآن الكريم)؟ وما زعم النورسي أنه يعرف القرآن على سبيل (الحد الجامع المانع) بتعبير المناطقة، وما قدمه من تعريف؛ إنما هو فيض من أنوار قلبه، وما قلبه إلا قمر من الأقمار السيارة، العاكسة لأشعة الأسماء الحسنى! فأكرم بذلك مقاما للعارفين الصديقين! وأما كتاب الله فلا تحيط به حدود، ولا ترسمه تعريفات! وإنما غاية الأقمار السالكة في فلكه أن تقتبس منه (لمعة من تعريف) كما عبر النورسي من قبل.

قال رحمه الله في تعريف ملخص للتعريف السابق، وشارح له في الآن نفسه، ومبينا كيف أن مصدرية القرآن العليا، من حيث هو (كلام الله)؛ قد رفعته فوق كل الحدود والرسوم: (إن مَنْحَ القرآن الكريم أعلى مقام من بين الكلمات جميعا – تلك الكلمات التي لا تحدها حدود – مرده أن القرآن قد نزل من الاسم الأعظم، ومن أعظم مرتبة من مراتب كل اسم من الأسماء الحسنى. فهو كلام الله بوصفه رب العالمين، وهو أمره بوصفه إله الموجودات، وهو خطابه بوصفه خالق السماوات والأرض، وهو مكالمة سامية بصفة الربوبية المطلقة، وهو خطابه الأزلي باسم السلطنة الإلهية العظمى. وهو سجل الالتفات والتكريم الرحماني، نابع من رحمته الواسعة المحيطة بكل شيء. وهو مجموعة رسائل ربانية تبين عظمة الألوهية (...) وهو الكتاب المقدس الذي ينثر الحكمة. ولأجل هذه الأسرار أطلق على القرآن الكريم بما هو أهله ولائق به؛ اسم: (كلام الله)!)([16])

إن حقيقة كون القرآن الكريم (كلام الله رب العالمين) تجعل المؤمن – إذ يقرؤه ويرتله أو يتدبره ويتدارسه – يَنشَدّ إلى أشعة الأسماء الحسنى، ويتعلق بأنوار الربوبية. وذلك من أعظم ما غمر قلب بديع الزمان، وصاغ معماره المنقوش بالمحبة المتوقدة! ولذلك قلنا: إنه إنما انبهر

---

16 الكلمات: 147/1

بالقرآن من حيث هو خطاب رباني، وما فاض عنه من مواجيد مفهومية أو تفسيرية؛ إنما فاض من حيث تدبره لهذه الحقيقة العظمى التي لا تطاق! وذلك ما أشار إليه في النص السالف، وهو ما فتئ يكرره ويعيده، تماما كما يكرر المحب اسم محبوبه، بغير إرادة منه ولا اختيار. وذلك نحو قوله الذي يشبه نوعا من الانجذاب: (القرآن الكريم الذي بين أيدينا هو كلام رب العالمين)([17]). ربما يقول قائل: إن هذا الكلام بدهي! أي أن (القرآن هو كلام رب العالمين)؛ كلا! إن النورسي لم يتكلم بعبارات وإنما تكلم بدلالات ومعان! وهي بكل تأكيد من غرائب الحقائق. فقوله هذا رحمه الله: (القرآن الكريم الذي بين أيدينا هو كلام رب العالمين) فيه دلالة واضحة على أنه ينبه إلى أمرين:

– الأول: غفلة الناس عما بين أيديهم! فهذا القرآن مكتوب في المصاحف المنتشرة في كل مكان، وبين أيدي كل الناس. ولكن المشكلة أن آفة التعود قتلت حاسة التدبر والتفكر في الإنسان. فعميت البصائر أن ترى حقيقة القرآن الكريم الكونية، ومفهومه الرباني، رغم أنه بين أيديها!

– الثاني: إثارة الانتباه بهذا التعريف إلى أن الذي يجب أن نشهده في القرآن – بالقصد الأول – إنما هو جلال الله رب العالمين، وجماله تعالى، من حيث إنه هو سبحانه المتكلم به! وهذا أيضا مما طمسه التعود والجهل لدى الناس. فالنورسي في هذا الأمر هو أشبه برجل رأى آخر عثر على حجر من ذهب وهو لا يدري أنه من ذهب، فجعل هذا يستعمل الحجر لأمر وضيع، غير لائق بالذهب؛ بينما جعل العارف بالذهب يتأسف ويتحرق؛ أسى على تضييع ذلك الجاهل لما بين يديه من مال عظيم! ومن هنا صيحة النورسي وتنبيهه إلى عظمة ما (بين أيدينا): (إن القرآن الذي بين أيدينا...).

إن الوجدان الذي صدر عنه تعريف القرآن لدى النورسي هو وجدان منبهر بالربوبية العظمى! إن كل المسلمين يعرفون أو يقولون: (إن القرآن هو كلام الله). ولكن قليلا منهم يستحضر في قوله هذا؛ أن الله جل جلاله قد تكلم بهذا القرآن؛ من حيث هو (رب العالمين). إن ذلك يعني أن آفة التعود – كما ذكرنا – قد قتلت حاسة التدبر في الإنسان؛ ففقدت القلوب بذلك إحساسها بالقرآن العظيم، الذي لم تطقه حتى الجبال الشامخات، كما

---

[17] اللمعات: 346/3.

في قوله عز وجل: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله)(الحشر:21).

إن ههنا لدينا حقيقة مهمة في فهم خصوص مقصد بديع الزمان التعريفي هنا؛ وهي أن الهدف الأساس من تعريف الناس بالقرآن إنما هو تعريفهم بالله؛ ولذلك سلك إليه من باب الربوبية. وللربوبية ذوق خاص لديه رحمه الله، فهي تشير عنده إلى تجلى الأسماء الحسنى على الكون كله من حيث الخلق والقيومية، وما تعلق بهما من أسماء وصفات ربانية. فكل جزيئية في الكون، وكل ذرة؛ من كل شيء إنما هي متعلقة بهذا الرب: (خالق كل شيء)(الأنعام:102). وذلك بتعلقها باسمه الأعظم سبحانه، وأسمائه الحسنى، الناطقة بجلال ملكه، وشمول سلطانه. إن القرآن الكريم كمفهوم تعريفي لدى النورسي يقود إلى هذه الحقيقة الكبرى: معرفة الله تبارك وتعالى (رب العالمين)! وذلك عين الحقيقة الإصلاحية التي قام عليها مشروع النورسي الإصلاحي التجديدي، ومن أجلها، مشروع إنقاذ الإيمان وتجديده في المجتمع الإنساني، هذا المشروع الذي اعتمد فيه خاصة على تجديد الوعي (بالقرآن) بما ذكرنا من مواصفات مقاصدية، وهو أمر يصرح به النورسي بكل وضوح، وذلك قوله: (الوظيفة الأساسية للقرآن الكريم هي تعليم شؤون دائرة الربوبية، وكمالاتها، ووظائف دائرة العبودية وأحوالها.)([18]) من هنا إذن كان اهتمامه بكتاب الله، ومن هنا أيضا كان منطلق تعريفه إياه.

يقول رحمه الله في تعريف آخر للقرآن الكريم، أوضح في الدلالة على خصوص انبهاره بجمال الربوبية وجلالها: (إن القرآن كلام الله باعتبار أنه رب العالمين، وبعنوان إله العالمين، وباسم رب السماوات والأرضين، ومن جهة الربوبية المطلقة، ومن جهة السلطنة العامة، ومن جانب الرحمة الواسعة، ومن حيثية حشمة عظمة الألوهية، ومن محيط اسمه الأعظم إلى محاط عرشه الأعظم)([19]). إن هذا النص الفريد لدى النورسي ليؤكد أن الرجل كان ينصت إلى القرآن الكريم إنصات من يستحضر منازله العليا، وحركة الوحي وهي تعبر الكون العظيم، فتطوي طبقات السماوات طيا! لتغمر المكان والزمان بأنوارها! وتنشئ بعد ذلك حركة

---

[18] الكلمات:293/1

[19] المثنوي العربي:463/6، ن. مثله في: اللمعات:346/3.

مباركة، تمتد في التاريخ البشري؛ عمرانا حضاريا، لا يفتأ يتجدد أبدا، ما دام لهذا القرآن مرتلون ومتدبرون!

إن (مفهوم القرآن) بهذا المعنى؛ يمتد عبر الكون كله؛ انطلاقا من نور الاسم الأعظم؛ إلى صناعة التاريخ الإنساني في الأرض! ومن التكوين الأول إلى التكوين الثاني، أو من الدنيا إلى الآخرة! من هنا إذن؛ ما كان لبشر أن يحد القرآن، من حيث هو (كلام رب العالمين)؛ إلا أن يجد (لمعة من تعريف القرآن). وإلا فإنه لا حد له إلا أن تقول: (القرآن هو: القرآن)!

إن مفهوم القرآن مفهوم غيبي. والغيب قاض على عالم الشهادة، ومحيط به! وما كان للمحاط أن يكون أقوى من المحيط! ولذا فإن النورسي كان واضحا في اشتراط (سلامة القلب) على من قصد مشاهدة جمال القرآن. قال: (لقد شاهدت أن مشاهدة جمال القرآن تابعة لدرجة سلامة القلب وصحته. فمريض القلب لا يشاهد إلا ما يشوه له مرضه! فأسلوب القرآن والقلب، كلاهما مرآة، ينعكس كل واحد في الآخر)([20]). هذا، وأما القضية الثانية من قضايا التعريف، المعتمد لديه لمفهوم (القرآن) فهي:

كونية القرآن الكريم :

إن معنى (الكونية) هو من لوازم الوحدة الأولى، أي كون القرآن (كلام الله باعتباره رب العالمين). فالربوبية قاضية على كل معاني الشمول والامتلاك والسلطنة! ذلك أن (القرآن) من حيث هو كلام رب العالمين، متضمن لمعنى الربوبية، الجامعة لكل عناصر الكون امتلاكا وقهرا. كما أن الكائنات – من خلاله – تدور جميعها حول هذا المعنى، سالكة إلى الله خالقها، منجذبة إلى نوره تعالى. ومن هنا كان القرآن وهو – خطاب إلى الإنسان – خطابا كونيا أيضا، لاسيما وأن (الله سبحانه خلق الإنسان، وجعله نسخة جامعة للكائنات، وفهرستة لكتاب العالم)([21]). ثم إن القرآن فيه (كل شيء) ويتحدث عن (كل شيء)!

ويمكن تفصيل (كونية القرآن) – من حيث هو مفهوم – فيما يلي:

---

20 المثنوي العربي:157/6

21 إشارات الإعجاز:27/5

يقول النورسي: (فكأن القرآن المنزل عليهε قراءة لآيات الكائنات)([22]). ومعنى ذلك أنه كتاب كاشف للغز الحياة بصورة بسيطة. فهو يقدم الصعب المعقد تقديما سهلا ميسرا؛ ولذلك سهل على العامة؛ بل حتى على الأميين؛ (قراءة) مقاصده من خلال أبعاده الكونية؛ إذ يلفت الانتباه إلى مظاهر الكون التي يبصرها كل ذي عينين؛ ليتفكر في خلق السماوات والأرض. كل على حسب طاقته، وسعة إدراكه، فيكون القرآن الكريم بكونيته هذه خطابا لجميع الناس، بجميع مستوياتهم الثقافية، واختلافاتهم اللغوية والعرقية. وهو ضرب من ضروب الإعجاز. يقول بديع الزمان: (انظر إلى درجة رحمة القرآن الواسعة، وشفقته العظيمة على جمهور العوام، ومراعاته لبساطة أفكارهم، ونظرهم غير الثاقب إلى أمور دقيقة! انظر كيف يكرر ويكثر الآيات الواضحة، المسطورة في جباه السماوات والأرض! فيقرئهم الحروف الكبيرة التي تُقرأ بكمال السهولة، كخلق السماوات والأرض، وأمثالها من الآيات، ولا يوجه الأنظار إلى الحروف الدقيقة المكتوبة في الحروف الكبيرة إلا نادرا، كيلا يصعب الأمر عليهم. ثم انظر إلى جزالة بيان القرآن وسلاسة أسلوبه وفطريته، كيف يتلو على الإنسان ما كتبته القدرة الإلهية، في صحائف الكائنات؛ من آيات؛ حتى كأن القرآن قراءة لما في كتاب الكائنات وأنظمتها، وتلاوة لشوون بارئها المصور، وأفعاله الحكيمة. فإن شئت استمع بقلب شهيد لقوله تعالى: {عم يتساءلون} و{قل اللهم مالك الملك}(آل عمران:26) وأمثالهما من الآيات الكريمة.)([23])

ومن هنا كان القرآن بحق – كما قال النورسي – (مفسر كتاب العالم، وحجة الله على الأنام)([24]). كل الأنام، عالمهم وجاهلهم، عربهم وعجمهم؛ لأن اللغة العربية ليست شرطا في قراءة الكون! فيكفي أن تفهم المعنى من القرآن الكريم أو بالأحرى بعضه، ولو مترجما لينطلق الفكر في (القراءة) للأحرف الكبيرة، فما العالم كله إلا كتاب كبير.

رسالية القرآن الكريم وغايته التعبدية:

وتلك قضية أخرى؛ وذلك أن القرآن الكريم رسالة إلى العالم البشري من رب الكون!

---

22 اللمعات:498/3

23 اللمعات:196/3

24 المثنوي العربي النوري:55/6

وهذه الجملة كافية لبيان الدلالة المفهومية العظيمة للقرآن؛ ذلك أن الله تبارك وتعالى لم يكن يتكلم بالقرآن وكفى، ولكنه كان يخاطب به مخاطبا ما، ذلك المخاطب هو الإنسان. وهذه حقيقة من أعظم الحقائق التي قتلها (التعود) البشري الذي يطمس كثيرا من الحقائق العظيمة في هذا العالم. ولعل النورسي بتفكره وتدبره قد اهتز وجدانه لهذه الحقيقة الكبرى. فكان أن وجد نفسه منجرفا بشكل وجداني لخدمة هذا القرآن. ومن هنا انبنى مشروعه كله على هذا الهدف غاية ووسيلة. أي أنه جعل القرآن غايته وهو في الآن نفسه وسيلته. ومن هنا جاء في تعريف القرآن لديه، مما سبق ذكره: (وكذا هو مرب للعالم الإنساني. وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد الهادي إلى ما خلق البشر له. وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر.)

فأنت ترى أن النورسي لم ينظر إلى القرآن – في جانبه التشريعي – على أنه مجرد مصدر من مصادر التشريع، أو المصدر الأول للتشريع وكفى! كما هو منصوص عليه في البحوث الأصولية والفقهية. بل لقد نظر إلى هذه الشريعة القرآنية على أنها تربية للعالم الإنساني، ونور له في عالم الظلمات، تهديه إلى منابع الخير والجمال، لتنتهي به إلى غاية الغايات: ألا وهي الوصول إلى الله. ومن هنا كان القرآن عنده (معراجا) للمؤمنين.

لقد كان انتباه النورسي إلى المعنى الرسالي للقرآن بابا فتح عليه من معاني النور مواجيد لا تنتهي لذاذاتها أبدا. وبهذا المنظار نظر إلى رسول الله محمد بن عبد اللهε: إنه رسول جاء بالقرآن! فأعظم به من رسول إذن! جاء يحمل هذا الكتاب الكوني العظيم إلى البشرية على أنه رسالة من رب الكون إليهم. قال بديع الزمان واصفا إياه بأنه: (أعظم من استوفى مهمة الرسالة بالقرآن الكريم، وأداها أفضل أداء في أسمى مرتبة، وأبلغ صورة، وأحسن طراز، فلبى إرادة رب العالمين في صرف وجه هذا الإنسان من الكثرة إلى الوحدة، ومن الفاني إلى الباقي)([25]).

---

[25] المكتوبات: 278/2

إن قيمة الرسالة – أي رسالة – تتحدد أولا وقبل أي شيء بقيمة مصدرها: أي معرفة من أرسلها؟ ومن هنا كان من فطرة الإنسان أن يبادر كلما تسلم رسالة بشرية إلي النظر في الغلاف؛ لمعرفة الجهة أو الشخص الذي أرسل إليه تلك الرسالة. وهناك يتحدد عنده الاهتمام أو عدمه، إذ يعرف (مَن؟) فيكترث ويهتم بقدر قيمة المرسل عنده. لقد انبهر بديع الزمان بالقرآن الكريم أشد انبهار. إذ وجد أن المرسِل هو الله رب العالمين! ولذا كان لا يفتأ يذكر هذا المعنى العظيم في كل مبحث من مباحث رسائل النور، لا يكاد يسكت عن ذلك، و لو قليلا! ولقد أوردنا من ذلك شواهد عند بيان (الوحدة) الأولى من وحدات التعريف، فلا حاجة للإعادة.

فإذا تمت لديه عناصر (الإرسالية) عظم الشأن عنده أكثر، ووصل الانبهار إلى غايته: وهي الانخراط في سلك الخدمة والسير إلى الله على سبيل الإصلاح والتجديد، وإيقاظ همم الناس: كأنه انتفض ليقول لهم: أيها الناس إن هذا القرآن هو رسالة رب العالمين إليكم! لقد أدرك بديع الزمان (عناصر الإرسالية). ذلك أن عناصر الإرسالية الأربعة تتحد بوجود المرسل، والمرسل إليه، والمضمون المرسل به، أو القصد، ثم المقام الشامل لظروف الرسالة. فالقرآن كلام رب العالمين هو، بذاته سبحانه المتكلم به؛ رسالة إلى الناس الحيارى – بدونه – في هذه الأرض. فهم إذن المخاطبون به. ولذلك جاء فيه أن هذا سبيل النجاة لكم أيها الحيارى! هذا كشف اللغز الكوني الرهيب! هذا بلسم الحيرة والقلق المحيط بالإنسان؛ من توقع الفناء والعدم. هذا بيان البدء والنشأة والمصير. هذه قصة الخلق كاملة ملخصة، بما لا يدع مجالا للشك، أو الحيرة، والتردد في الانطلاق سيرا إلى هذا الرب الرحمن الرحيم، الذي خلق ثم هدى! ذلك مضمون الرسالة. وأما مقامها فهذه الظروف البشرية الحياتية في الكرة الأرضية، وهذا السير البشري المتدفق في كل الاتجاهات؛ بحثا عن مخرج ما من ظلام لغز الحياة، وطلسم وجود الكائنات، وتناقض المذاهب والفلسفات!

في خضم كل ذلك جاء القرآن يحمل رسالة الهداية إلى الناس. إن بديع الزمان تحدث عن سر إعجاز القرآن فقال بكلمة موجزة، لكنها دالة حكيمة. قال رحمه الله: (اعلم أن منابع علو طبقة الكلام، وقوته، وحسنه، وجماله؛ أربعة: المتكلم، والمخاطب، والمقصد، والمقام، لا المقام فقط كما ضل فيه الأدباء! فانظر إلى من قال؟ ولمن قال؟ ولما قال؟ وفيما

قال؟ فالكلام إن كان أمرا ونهيا فقد يتضمن الإرادة والقدرة بحسب درجة المتكلم، فتتضاعف علويته وقوته!)([26])

إن المفهوم الرسالي للقرآن الكريم قائم أساسا على تبليغ مضمون ما للناس. ذلك المضمون هو الذي سماه بديع الزمان – في عدة مواطن من رسائل النور – بـ (مقاصد القرآن الأربعة) وهي: (التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة). قد تختلف عباراتها من نص إلى آخر، وقد تتفق، ولكن المضمون واحد. قال رحمه الله: (إن المقاصد الأساسية من القرآن، وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة)([27]). وقال أيضا: (فاعلم أن المقصد الأصلي في القرآن الكريم هو إرشاد الجمهور إلى أربعة أساسات هي: إثبات الصانع الواحد، والنبوة، والحشر، والعدالة)([28]).

خاتمة:

إن الرسالة القرآنية قائمة على إثبات هذه المقاصد؛ لتكون هي أساس (الوظيفة) التي نزل القرآن الكريم من أجلها، أعني الهدف الأسمى الذي يمثل المفهوم الرسالي للقرآن الكريم. ذلك أن إثبات المقاصد الأربعة لم يكن من أجل إثباتها لذاتها؛ لأنها ثابتة بالأصالة عند الله

---

[26] المثنوي العربي:78/6.

[27] إشارات الإعجاز:23/5

[28] إشارات الإعجاز:177/5

عز وجل ،وإنما كان الإثبات مقصودا من أجل أن يقوم الإنسان بوظيفة العبودية لله الواحد القهار، ويؤدي خدمته التي أنيطت به في هذا الكون، ألا وهي التعلق بأنوار الأسماء الحسنى، والانتساب إلى دائرة الربوبية من خلال دائرة العبودية؛ ومن هنا كانت (رسالة القرآن) هي تعليم الناس شؤون الدائرتين. يقول بديع الزمان: (الوظيفة الأساسية للقرآن الكريم هي تعليم شؤون دائرة الربوبية، وكمالاتها، ووظائف دائرة العبودية وأحوالها.)([29]). وبهذا المعنى كان القرآن الكريم هو (المعراج) التعبدي للعبد السائر إلى الله. ذلك أن الدخول إلى (الحقيقة) من باب خدمة القرآن والاشتغال به؛ هو (المعراج القرآني الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق وأوضحه، وأقربه إلى الله، وأشمله لبني الإنسان. ونحن قد اخترنا هذا الطريق!)([30])

من أجل ذلك كان القرآن عند بديع الزمان النورسي هو جوهر دعوة التجديد، وعمودها الأساس. لم تقم إلا به ومن أجله! هو المصدر، وهو المنهج، وهو البرنامج! منه وإليه يرجع كل شيء عند النورسي: تفسير الكون، وتفسير الحياة، وإعادة بنائها! فكان لذلك مصطلح القرآن –كما تعامل معه رحمه الله – هو المفتاح الأساس؛ لفهم كليات رسائل النور.

وإنما الموفق من وفقه الله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

ـــــانتهى.

---

[29] الكلمات:293/1

[30] صيقل الإسلام:123/8